

اللغة بين الكتابة والقراءة

المعيد
علي نجيب إبراهيم
كلية الآداب

تمحظى لقراءة باهتمام اللغويين في أنحاء
العالم كافة، وطبيعي أن صعوبات القراءة
تعود في الغالب إلى صعوبات الكتابة
فبقدر سهولة الكتابة واستيعابها لما هو
منطوق بقدر ما تقعد ولقراءة سهلة يسيرة
وتحاول هذه المقالة معالجة وضع اللغة ضمن
حقلي : الكتابة والقراءة

لعلنا لا نجد مكسباً اجتماعياً أفضل من اختراع الإنسان للغة ، فهي ظاهرة اجتماعية ترتبط في نشأتها بولادة الحضارة الإنسانية ، ويعتقد بعض من الدارسين أنَّ حيازة الإنسان على اللغة توافقت مع حيازته على الحضارة ، وأنَّ في افتراض خلو المجتمع البشري من اللغة اقتراباً بالبشرية من بداءة يوشك أن يكون معها الفرق بينها وبين عالم الحيوان ضئيلاً جداً .

وتنبع أهمية اللغة من كونها ترمز لمعاني الحياة في جميع تصاريفها بأصوات ينتجها جهاز النطق عند الإنسان ، ونتيجة الممارسة الطويلة للعملية اللغوية يدرك معاني الرموز الصوتية ، وبهذا يتفاهم الإنسان مع أخيه الإنسان ، ومن ثَمَّ ارتبطت اللغة بالفكر إذ ليس تعريف التفكير بأنه حديث داخلي بين المرء وذاته إلا تجسيدا لهذه الحقيقة ، وهكذا يتميز باللغة عن سائر الكائنات إذ باللغة صار الإنسان إنساناً ، وباللغة تطورت الحضارة وتقدّم العمران ، وبلغ العقل الإنساني ذروته ، فدرُس اللغة درساً علمياً فلسفياً درس في الإنسان وفكره ، ويتساءل هاري هويجر في بحث له حول هذا الموضوع : «كيف يبدو المجتمع إذا كان بلا لغة ؟» ، ثم يجيب قائلاً : «إنه سيكون طبعاً من دون كتابة أو أية وسيلة أخرى للتخاطب بالكلمات لأن كل هذه الوسائل تعتمد أساساً على الكلام المنطوق وستكون وسيلة تعلمنا محدودة جداً ، وسوف نضطر - كالحوانات - أن نتعلم من خلال العمل أو تقليد أعمال الآخرين» / الإنسان ، والحضارة ، والمجتمع . ترجمة د . عبد الكريم محفوض . ص ٣٦٩ - ٣٧٠ . هذا مع اعتبارنا أن اللغة فاعلية ما كانت لتنشأ إلا عن الممارسة العملية مما لا يُنافي قوله علماء الاجتماع : أصبح الإنسان إنساناً بالعمل ، ويظهر لنا من كلام هو يجر جانبان :

- ١ - وعي اللغة على أنها منطوقة ، أي أنها أصوات نتفاهم بواسطتها .
 - ٢ - تفريق الكاتب بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة ، وتأكيد على الأصرة بينهما مما يلفت الانتباه إلى أنَّ اللغة المكتوبة رهن بوجود اللغة المنطوقة وهي داخلية في مجال دراسات علم اللغة ، وليست هامشية أو مهملة فيه .
- واستناداً إلى هذين الجانبين سنقيم دعائم نقاشنا الذي يتناول أهمية الكتابة في الدراسات اللغوية تلك الأهمية التي تكاد تضارع أهمية النطق كما سيتبين .
- صحيح أنَّ علم اللغة يُولي أكبر اهتمامه للغة المنطوقة ، فيدرس الأصوات وما يتعلّق بها ، ولكنه يدرس الكتابة أيضاً ؛ ذلك لأنها لغة ، فإذا كانت المنطوقة مجموعة من الأصوات ترمز للمعاني فإنَّ المكتوبة رمز لهذه الأصوات ، أو رمز الرمز - كما سمّاها بعضهم - ولا شك

أن كتابة الصوت برمز مرسوم هي حفظُله وديمومة ، وليس تعسفاً أن نسمي الكتابة مستودعاً لحفظ الأصوات أو لنقل لحفظ المعاني التي ترمز لها الأصوات .

وإذا ، فهناك علاقة وثيقة بين اللغة والكتابة ، فالإنسان يترجم بوساطة الكتابة الكلمات المنطوقة إلى كتابة ، والكتابة إلى كلام منطوق ، حتى إننا نعتقد بأن الكتابة نفسها ما هي إلا شكل من أشكال اللغة ، ويؤكد هو يجر من جهة أخرى - وهو مصيب في تأكيده - على أن الكتابة وسيلة خارجية تمكننا من الاحتفاظ بسجل دائم للكلام إلى حد ما . . . ولكنها عنصر حضاري متميز جداً عن اللغة المنطوقة بأصله وتاريخه ، لأن الكتابة أحدث من اللغة بكثير « فلقد حاز الإنسان على اللغة منذ ما يقارب المليون سنة ، بينما لم تظهر الكتابة إلا في بداية عصر البرونز ، ولدى عدد محدود من المجتمعات فقط » / نفسه ص ٤٠٣ / .

فالكتابة - كما نفهم من هذا القول - اختراع لا حق على اللغة ، ولكنها من مشتقاتها على أية حال ، ولذلك لسنا نوافق الدكتور سعيد فريحة في فصله الجائر بين اللغة والكتابة ، فهو يرى أن الكتابة عَرَضُ أو طارئ على اللغة : « الكتابة ليست من اللغة بشيء كما أن الرموز الموسيقية ليست من الموسيقى بشيء » / نحو عربية ميسرة - ص ١٩٠ / ، لا نوافقه لأن الكتابة - في نظرنا على الأقل - مظهر أكثر تطوراً من مظاهر استمرار اللغة المنطوقة ، ولا أدل على ذلك من الدور الحضاري الكبير الذي تشغله الكتابة ، فهي سبب انتشار المعرفة والثقافة بين المجتمعات ، وهي اختراع ما كان ليتحقق لولاه هذا الاتصال بين الماضي والحاضر ، وبين أفراد المجتمع الواحد . ويرى البشير بن سلامة أن الكلمة المكتوبة رمز للواقع ، ثم يردف : « ولعله من أجل هذا خُلِقَ مع الكتابة النثر الذي ليس هو الحديث ولا الشعر ولا الأمثال ولا الخطابة ، بل هو ضرب من وسائل التعبير من شأنه أن يخرج الإنسان من سلطان الذاكرة ، ويحفزه على التصدي إلى الذاكرة المنشدة فيبُعدها ويرمي بها عرض الحائط » / مشاكل الكتابة العربية ص ٤٠ /

إن في كلام البشير - الذي آثرنا أن نقله - تصوراً وجيهاً عن الفترة التي لم تكن الكتابة منتشرة فيها ، إذ كانت ممارسة اللغة تقوم على ما تدخره الذاكرة من معاني الأصوات دون أن يكون هناك أي مرجع آخر . ثم اخترعت الكتابة وتولّد عنها النثر الذي غدا ذاكرة تختلف عن ذاكرة الإنسان ، ذاكرة تترجم الصوت إلى رمز مكتوب تحفظه ، وبذلك تحرر الإنسان من أعباء الحفظ . وضروري أن نشير إلى ما سبق لابن خلدون أن بحث فيه وهو أن الذاكرة

المنشدة كانت سائدة في مرحلة تاريخية لا تتطلب وجود الكتابة ، لأنّ الكتابة «تندم مع البداوة ، وتكتسب بالتحضر ، والكتابة فن حضري ، فلا تنشأ في البيئة الصحراوية» / المقدمة ص ٤١٧ / ، من هنا نعرف كيف تولد النثر ، وأية مرحلة تطلبت ولادته ، إنها مرحلة تعقّد حياة المجتمع ، وانتقالها من حياة البداوة إلى حياة الحضاراء ، ومن ثمّ نعرف أيضاً أن النثر (وليد الكتابة) نتيجة الخلق والإبداع عند الإنسان وليس سبباً لها كما يقول البشير : «والنثر يدعو الإنسان إلى كسر العادة ، ودوس التقاليد المكبلة للمخلوق والإبداع والمقيّدة لحواجز التقدّم والرقى» / مشاكل الكتابة العربية ص ٤٠ / . وإذا كنا نحسب هذا الإغفال على البشير فإن في رأيه اللاحق أهمية خاصة حيث يقول : «وهذا النوع من النثر هو الذي ولدت معه القراءة . . .» ص ٤٠ / . وتبدو هذه الأهمية من كون الكاتب يُسكّ بخيط تطور الكتابة من مجرد كونها رموزاً للأصوات إلى صيرورتها وسيلة من أفضل وسائل نشر المعرفة الإنسانية ، ولكي يدفع التساؤل عن كيفية تطور القراءة يقسمها إلى قسمين ينطوي كل قسم على مرحلة :

- ١ - مرحلة القراءة بالإنشاد ، وهي للتعلّم والتدرّب .
- ٢ - مرحلة القراءة الصحيحة الكاملة التي تعتمد العين دون النطق .

فالمرحلة الأولى تعبّر عن طفولة الإنسان في تعامله مع اللغة المكتوبة ، وعن إرهابات أولية لبداية فن القراءة الناشيء أساساً عن فن الكتابة ، وهذه البداية هي الإنشاد للتعوّد على اللفظ وربط ما ينطق من الأصوات بالرموز المكتوبة ثم تحليلها في الذهن لإدراك معانيها .

وفي المرحلة الثانية - مرحلة اكتمال القراءة - انتقل الإنسان من المسموع وربطه بالمكتوب وبالمعنى المختزن في الذهن انتقل إلى المرئي - المكتوب - وربطه بالمعنى المختزن في الذهن مباشرة ، وهذه عملية أصعب من الأولى ، لأنها تعتمد على التجريد في اختصاره خطوة من خطوات المرحلة الأولى وهي السماع ، والاعتماد على التجريد تعبير عن مرحلة أكثر رقياً للذهن البشري .

من جهة أخرى ينوه إلى أن هاتين المرحلتين لا تزالان تتبعان حتى الآن في التعليم المدرسي فيعلم الطفل اللغة أولاً بقراءة الإنشاد التي تعتمد الوسيّلتين : السمعية ، والبصرية ، فنحن نعلم أن الأولاد عندما يتعلمون الكتابة يمدون ألسنتهم على إيقاع كفهم ، أو أنهم يلفظون الكلمات بالصوت العالي لأن أحداً يسمعهم ، بل ليساعدوا أنفسهم على تسيير القلم ، وهذه الحركة غير إرادية تماماً والذي يحدث بالفعل هو أنه يوجد «بث عصبي»

